الحصار

• رينا شريل*

أتمنّى أن تموت الأشياء قبل أن تَحْدث. فهي، حين تَحْدث، تَجْعلني أموت كلَّ يوم. ما الأفضل: أن يموت الحلم، أو أن يتحقَّق ويتفسَّخ ويهترئ؟

اليوم أسافر هربًا من واقع الحلم. تغصّ القاعةُ بالمسافرين. يلوح على وجوههم التعبُ والإحساسُ بنهاية زمن. يجلس في مواجهتي رجلٌ في الثلاثينيّات أو الأربعينيّات من عمره. يَنْظر بتبرُّمٍ إلى ساعته: لم يَعُدْ يَحْتمل البقاءَ على أرض الوطن، يَسْتَعْجل موعد الإقلاع، يَرْحل بعيدًا عن سنين من الأحلام المشتعلة لم تَتْرك في حلقه سوى طعمِ الرماد.

أَسْمع من خلفي أصواتَ طفلَيْن: يصرخان، يَضْحكان، يتشاجران، والأم تحاول أن تهدِّئهما بإعياء واضح. فجأةً يَخْتفي صوتُها. أَسْتدير فأراها تعود إلى مقعدها لامباليةً: لو كانت طفلةً مزهوّةً بالأحلام أو بلا أحلام لاستطاعت أن تَسْعد مثلهما ببساطةِ الأشياء من حولها. لا شكَّ أنّها كانت سعيدة ذاتَ يوم، كما كنتُ أنا.

الآن يبدو ذلك الزمنُ بعيدًا، زمنَ أَحْبَبْتُه فيه برغبة جارفة، لا حدود لها. كان حبُّنا جنونًا لا يوصف، جنونًا لا يَعْترف بالأصنام والتعاويذ ومقتضيات الواقع. كان الموت من حولنا، وكنّا نَغْرق في الحب، وكان هو كالإله في عالَمٍ يسوده العدل. لطالما اشتعلتْ دماؤنا وانهار من حولنا الغباء. وكان كل ذلك يَعْني تحقُّق الحلم.

واليوم أسافر هربًا من واقع الحلم. يقف الرجل ويذرع القاعة ذهابًا وإيابًا بعصبيّة واضحة. يكوِّر قبضتَيْه كأنّه يريد أن يسدِّد الضربات إلى مَنْ حوله. أَلْمح في زنده آثارَ جرحٍ عميق اندمل بطريقة غير ملائمة: لا بدّ أنّ رصاصة أو عدّة رصاصات اخترقته.

يَقْترب من المرأة وطفلَيْها. لوهلة إخال أنّه زوجها، لكنّه يَبْتعد فجأةً. لم يَكُن في وجه المرأة ما يشجِّع: فالألم يَقْفز من كل معالمه، والقلقُ يحتلّ عينَيْها.

الآن لم تَعُدْ ذاكرتي تُسْعفني لأعرف متى وحتّام استمرّ الحلم. أريد على الأقلّ أن أَعْرف كيف بدأ يتفسَّخ. في وقتٍ ما، في زمنٍ ما، نَصَبَتْ لنا الأصنامُ فخّاً، وحاصرتْنا التعاويذُ، وأرهقتْنا مقتضياتُ الواقع. راح الوقتُ يَعْبرنا دون أن نعي. وغَرِقْنا في الغباء والتفاهة واللامعنى. صار الألمُ يَنْفجر في داخلنا، ألمٌ فظيع رهيبٌ يَحْمل في ثناياه قلقَ الموت.

أَعْجز حتى الآن عن تفسير كل تلك التغيُّرات: كيف تَحوَّل الجنونُ عقلاً بغيضًا؟ كيف راح الجسدُ ينازِع وينازَع؟ كيف سقط الإلهُ وخَبَتِ النيرانُ؟ صار السؤال الملحّ: كيف يُمْكن الاستمرارُ في حبّ دون مستوى الجنون والعشق والاحتراق؟ أعرف أنّي ما زلتُ أحبّه. ما زلتُ أحبُّه وأتقزَّز من حلمٍ يتآكله الاهتراءُ كلَّ يومٍ.

في ذلك الوقت، شعرتُ أنّني محاصَرة، سجينةُ مشاعرَ وأفكارٍ لم أعُدْ واثقةً منها. كنتُ، إذا نظرتُ في المرآة، أجد نفسي أمام امرأة أخرى ورجل آخر. تلتصق شفتاه بشفتيَّ، فلا يقبِّلني ولا أقبّله. صار البردُ ثقيلاً والصمتُ قاسيًا وأمسياتُنا هادئةً، هادئةً جداً...

أُشعل النارَ لأستمع إلى نشرة الأخبار فلا تَشْتعل، والنشرةُ تغصّ بسجوننا والمعتقلين. يشتدّ الحصارُ ويقترب الموت.

قلت له: لا أَحْتمل.

قال: ولا أنا. لكنّه الواقع.

قلت: أَتَذكر تلك الكلمات: «أنا أكنّ احترامًا كبيرًا لآدم، لأنّه يومَ قرَّر أن يذوق التفاحة لم يكتفِ بقضمها، وإنّما أكلها كلَّها. ربما كان يَدْري أنّه ليس هناك مِنْ أنصافِ خطايا ولا أنصافِ ملذات... ولذلك لا يوجد مكانٌ ثالثٌ بين الجنّة والنار. وعلينا ـ تفاديًا للحسابات الخاطئة ـ أن نَدْخل أحدهما بجدارة.»[1] أرجوكَ لا أحتمل أنصافَ الحلول وأنصافَ المشاعر وأنصافَ الثورات. إنّها مشوّهة.

---

* ـ كاتبة لبنانيّة شابّة.

١ ـ أحلام مستغانمي، **ذاكرة الجسد** (بيروت: دار الآداب، الطبعة ١٦، ٢٠٠١).

قال: على أيّة حال، لا يُمْكن أن تستمرّ النشوةُ إلى الأبد.

قلت: لنَمُتْ إذًا. موتُ الحلم أفضلُ من اهترائه.

قال: لا معنى لما تقولين.

تركني ورَحَلَ. لم يفهم أنّ علينا أن نموت.

في ذلك المساء، قررتُ الرحيل. كنتُ أعلم أنّه سيعود غدًا وسيستمرّ العالَمُ... بسَحْقنا. سندور في همومنا الصغيرة. سَنَسْتمتع بملذاتنا البدائيّة. سيَحْتَزِلُ الوقتُ كلَّ شيء وسيَحْتزِلُنا، وستبقى الشوارعُ والمتاجرُ والصورُ كما هي.

تُرى لِمَ اهترأ الحلم؟ لِمَ خبا الجنون؟

ألأنّ الحبَّ مات؟ أم لأنّ العالَمَ لم يتغيرْ؟

قررتُ الرحيل.

اليوم أسافرُ هربًا من واقع الحلم. لا أعرف إلى أين أسافر، رغم أنّ لبطاقة السفر وجهةً محدَّدةً. أرحل بعيدًا عن الحلم المتفسِّخ، وفي ذهني عالَمٌ آخر، مختلف، يشدُّني إليه جنينٌ غامضٌ، عالَمٌ يولد مع كلمة «الرحيل.»

«الحلم بالعيش في مدينة جديدة ومجهولة يَعْني الموتَ بعد فترة قصيرة. فالأموات يعيشون في مكان آخر لا أحد يعرفه.»[1]

أيكون الرحيل مرادفًا آخرَ للموت؟

«يُرْجى من المسافرين الكرام التوجُّه إلى الطائرة...»

سبقني الرجلُ والمرأةُ مع طفلَيْهما. تبعتُهم. كان لا بدّ من السفر. أرجو أن أَبْلغ الطائرةَ بسرعة. أَبْرزَ الرجلُ جوازَ سفره. انتحوا به جانبًا. اقتربت المرأةُ ببطء وأبرزت العديدَ من الأوراق. انتحوا بها جانبًا. جاء دوري. ولكنْ أين جوازُ السفر؟ انتحيتُ جانبًا لأبحث عنه.

كان الرجل يَنْظر باشمئزاز إليهم. يفتِّشونه تفتيشًا دقيقًا، بطيئًا، باردًا، مُذِلاً. المرأة تَصْرخ أنّها لن تَرْحل دون ولديها، وأنّه يجب تغييرُ القوانين. ولكنْ أين جوازُ السفر؟ هل أضَعْتُه؟ ماذا أفعل الآن؟ كيف يُمْكن أن يضيع جوازُ السفر؟ وكيف أعود؟ ولماذا أعود؟

بيروت

١ - عن عبارة فرنسيّة وردت في الرواية التالية: Umberto Eco, **Le pendule de Foucault**.